من تراب الطريق (٥٢١)

ماذا نعرف عن الكون الهائل العظيم (*) (١)

درج الناس، قالوا أم لم يقولوا، على افتراض أن الكون بأسره قد خلقه الخالق جل وعلا من أجلهم. فهل صحيح أن هذا الكون الهائل العظيم خلقه عز وجل خصيصا من أجل الآدميين؟ أم أن تسلط الآدميين بما معهم من وعى وفهم وحيلة وذاكرة على الكائنات الحيّة الكبيرة الموجودة على الأرض، هو الذى سَوَّغ لهم أن الأرض التى يعيشون على قشرتها قد سخرت لنفعهم هم وحدهم؟ وهل فاتهم أن يسألوا أنفسهم ما هو وضعهم بالنسبة لما ينالهم ويصيبهم ويفتك بهم من الكائنات الصغيرة والصغيرة جدا مثل الحشرات والطفيليات والميكروبات والفيروسات؟ وأن يسألوا عن حالهم مع مفاجآت الجدب والقحط والأمواج والعواصف والأنواء والأعاصير والزلازل والبراكين والمجاعات والثورات والفتن والحروب؟ وأن ينتبهوا إلى شدة قرب النقم من النعم والعلل من العافية والسخط من الرضاء والخراب من العمار والهلاك من الحياة؟!

إن نعم الخالق عز وجل على كل حىّ: جاءت وتجيء دائما بلا طلب ومجانا بلا مقابل، وأولها وأهمها الإنعام بالحياة قبل أن تكون، وبالوجود والإحساس والاستمتاع به بعد العدم، وتيسير الحرارة والضوء للحىّ بالشمس، والقرار والغذاء له بالأرض، والقدرة على الاستمتاع بالرؤية والهدوء بالسماء والأنس ليلاً بالنجوم والقمر، والشرب والرى بالأنهار،

(*) المال ٧/ ٩/ ٢٠١١

والسفر بالبحار ، والثمار والألبان والشهد بالنبات والحيوان والطير والنحل .. كل هذه ولا تحصى نوعًا ولا عددًا : هبات وعطايا مجانية لا يتسلط معطيها عز وجل على من أعطاها لهم ، ولا يقهرهم أو يذلهم بها ، لا يسمح لهم بأن يقهروا بها أمثالهم أو غيرهم.. بل ينتظر سبحانه من الجميع دائما حدًّا من المعرفة والشكر والحمد والمودة والسلام والأمان .. كل بطريقته وحسب مقدرته وما تتيحه له موهبته وإمكاناته التى فاز بها من الخالق مجانًا .. كرمًا منه وعطاء وسماحة وفضلا على من لا يستطيع لها تدبيرا ولا لها طلبا وهو فى لجة العدم إن كان للعدم لجة !!

والعجيب أن الأحياء لا يلتفتون قط إلى أن وجودهم أو حياتهم على اختلاف أجناسهم وأقوامهم وأعمارهم وأحجامهم هو فى ذاته نعمة كبرى على الجميع .. يخفيها عن كل فريق انصرافه إلى أهله و انحصارهم فى ذواتهم .. كأن الوجود بأسره مقصور عليهم دون سواهم !

كان ينبغى أن يفطن عقل الآدميين بعد تطوره إلى هذا التشتت الذى يحمل فى طياته بذور وأسباب العداوات التى لا تهدأ بين الأحياء ، وأن يقودهم العقل الذى حُبِىَ به الإنسان إلى قيادة من يستطيعون قيادته من بنى جنسهم ومن غيرهم من الكائنات الحيّة إلى سلام وأمان جامعين مستقرين . لكن تطور الآدميين زادهم وهذا لافت زادهم اندفاعا إلى الغرور والأثرة والترفع .. حتى على الكثرة من أبناء جنسهم ، وعلى الإمعان فى استغلال الإنسان والحيوان واستعبادهما استغلالاً واستعباداً امتدا فى الماضى إلى ما لا يبلغه الخيال ، وما زالا يمتدان بصورة أو بأخرى فى حاضرنا وفى مستقبلنا إلى زمن لا نعرف مداه . وقد أدى هذان : الاستغلال أو الاستعباد إلى انقراض العديد

من أجناس الحيوان والنبات ، وإلى تدهور العديد من أجناس الإنسان بعد ضياع العديد منها ضياعًا بصورة نهائية لا رجعة منه !

والخالق عز وجل ، ولا يتقيد بالزمان والمكان .. فهو سبحانه وتعالى لا يتحدد ولا يرتبط لا ينفصل .. وقد تحار عقول البشر وهى فى أسر قيودها وشروطها وظروفها تحار فيما تشهده من شواهد الصبر التى تمهل ، أو ما تفاجأ به من مظاهر العجلة التى لا تمهل ، ثم تعود بعد أن ينجاب قلقها وحيرتها ، فترى حكمته سبحانه التى لا حدود لها وقد غطت وشملت كل ما كان ويكون من آجل وعاجل .. والله تبارك وتعالى لم يخلق جنسا من الأحياء من أجل جنس ولا نوعا من أجل نوع ، بل خلق عز وجل كافة مخلوقاته من أجناس وأنواع وحيوان ونبات وجماد ، لينجلى إعجاز الخلق فى تنوعاتهم واختلاف استعداداتهم كبيرهم وصغيرهم .. ضئيلهم وهائلهم .. وليشهد الكل ثراء الحياة الذى لا ينفد فى كل طور من أطوار كائناتها وصورها .

كذلك ، لم يخلق الخالق غير الأحياء فقط من أجل الأحياء التى نعرفها .. بل إن غالب ما فى الكون الهائل غير حىّ .. من ذلك السدوم والمجرات والنجوم التى لا عداد لها والكواكب والنيازك وما إليها .. أما الأحياء عندنا ، فلا تتجاوز قشرها أرضنا برها وبحرها وجوها .. وأرضنا كلها لا تجاوز حجم ذرة فى الكون العظيم . وتبدو فى الفضاء اللا نهائى نقطة زرقاء لا حجم لها . وهى كوكب ثالث من كواكب الشمس فى ترتيب الصغر لا الكبر . تتوقف الحياة فيها على ما يصلها من ضوء الشمس بالقدر المناسب لهذه الحياة الموزعة بين اليابسة والماء .بل إن الشمس ذاتها ليست من كبريات النجوم ولا أواسطها ، ومنشأ طاقتها من استحالة عناصر الأيدروجين فيها

إلى عنصر الهليوم ، وتطلق طاقة نووية فى درجة من الحرارة تبلغ شدتها فى أعماقها ٢٧ مليون درجة فهرنهايت بكثافة تبلغ مائة وخمسين مرة كثافة الماء . وما تفوز به أرضنا من طاقة الشمس لا يجاوز واحدا على مليارين ومائتى مليون وذلك طوال مئات الملايين من السنين الجيولوجية كانت ولا تزال تزود أشكال الحياة كلها بزادها بما يلزمها من الطاقة عبر العصور والفصول. فالكائنات الحية فى حدود ما نعرفه لا تجاوز هامش الهامش من الكون الهائل العظيم ، ونصيب الآدميين فى هامش هذا الهامش ضئيل ضئيل .. ليس كبيرا لا من حيث القدم بالنسبة لخلق الكون ، ولا من حيث العدد الذى يملأ الكون ببلايين البلايين من الأفلاك والشموس والأقمار والنجوم والكواكب والمجرات والسدوم .